

جماليات الوصف في رواية فتى الرصيف لبثينة مالكي

The Aesthetics of Description in the Novel "The Sidewalk Boy" by Buthaina Al-Maliki

طبيبون فريال¹

¹ جامعة أمحمد بوقرة بومرداس الجزائر

f.tayeboun@univ-boumerdes.dz

تاريخ الاستلام: 2025/02/21 تاريخ القبول: 2025/05/28 تاريخ النشر: 2025/09/01

ملخص:

يتناول مقال جماليات الوصف في رواية فتى الرصيف لبثينة مالكي قصة الطفل فارس الذي اختار رصيف أحد شوارع تركيا منزلا له يأويه بعد أن تحطّم بيته في سوريا واضطر إلى الهرب خارج بلاده بسبب الحرب والدمار الذي لحق بها، حيث صورت لنا الروائية عبر بطل روايتها قصّة آلاف اللاجئين الذين غادروا أوطانهم بحثا عن الأمان وهربا من الموت.

فمن خلال الوصف الدقيق للمكان والزمان والشخصيات نجحت الروائية في نقل صورة كأنها واقعية عن كل ما يعانيه اللاجئ العربي في البلدان الأجنبية من اختلاف اللغة وغربة المكان والزمان وقسوة البشر أيضا فاستطاعت باحترافية عالية أن تجسّد المشاعر الداخلية للشخصيات، وخاصة الشخصية الرئيسية فساهم الوصف في نقل الصراعات النفسية والتوترات التي تواجهها في الرواية. فهل وفقت الكاتبة في استخدام هذه التقنية؟ وكيف تجلت جماليات الوصف في رواية فتى الرصيف؟
الكلمات المفتاحية: الوصف، جماليات، الرواية، فتى الرصيف، الزمان، المكان.

Abstract:

The article discusses the aesthetics of description in Buthaina Maliki's novel *Sidewalk Boy*, which tells the story of Fares, a Syrian child who, after his home was destroyed by war, flees to Turkey and chooses a street sidewalk as his refuge. Through its protagonist, the novel portrays the struggles of thousands of refugees who leave their homelands in search of safety. The author skillfully uses detailed descriptions of place, time, and characters to depict the harsh realities faced by Arab refugees in foreign countries, including language barriers, cultural alienation, and human cruelty. The

narrative effectively conveys the psychological conflicts and tensions experienced by the characters, particularly the protagonist. The article questions whether the author successfully employed descriptive techniques and explores how the aesthetics of description are manifested in the novel.

Keywords: Description, Aesthetics, Novel, *Sidewalk Boy*, Time, Place, Characters.

*المؤلف المرسل: طيبون فريال

1. مقدمة

يعدّ الوصف تقنية أدبية تستخدم لتصوير الأشياء والأماكن والأشخاص والأحداث بطريقة دقيقة ومفصلة بشكل يجعل القارئ يشعر وكأنّه يعيش التجربة بنفسه، ويعتمد الوصف على استخدام اللغة التصويرية والخيال لإيصال المشاعر والأجواء التي تعكسها الرواية. يمكن أن يكون الوصف ماديا مثل وصف مظهر الشخصية أو البيئة أو نفسيا مثل وصف الأحاسيس. وللوصف أهمية كبيرة في الرواية كونه يساهم في بناء الأجواء العامّة لها، ممّا يساعد القارئ على الانغماس في العالم الروائي وفهم السياق الذي تجري فيه الأحداث. كما يساهم الوصف أيضا في تقديم تفاصيل حول خلفيات الشخصيات ودوافعهم ومشاعرهم ممّا يساعد القارئ على التعاطف معها. كما أنّه يساعد في تحديد المكان والزمان ممّا يعطي القارئ إحساسا بالواقع ويجعل الأحداث أكثر مصداقية.

ويهدف هذا البحث إلى الكشف عن جماليات الوصف في رواية فتى الرصيف لبثينة مالكي من خلال خطة بحث بدأناها بتعريف الوصف لغة واصطلاحا ثم دلالة العنوان الذي بدى وكأنّه فكرة عامة تحيل مباشرة على الرواية التي تحكي قصة طفل صغير مشرد يعيش على الرصيف، ثم توجهت مباشرة لشرح مدى توفيق الكاتبة في وصفها للأماكن بنوعها المفتوحة والمغلقة ومدى توافقها مع الشخصيات وكذلك وصف الزمان من خلال استخدام المفارقة الزمنية سواء الاسترجاع أو الاستباق، مروراً بوصف الشخصية من النواحي الجسدية والنفسية وحتى الإيديولوجية، ثم أخيرا وظائف الوصف وهي خمسة، وظيفة سردية ووظيفة الإيهام بالواقع، وظيفة رمزية وإيديولوجية وإبداعية. ثمّ أنهيت مقالتي بخاتمة تضمنت كلّ النتائج التي توصلت إليها. واعتمدت في ذلك على المنهج الوصفي التحليلي لأنه الأنسب للدراسة. أمّا الإشكالية الرئيسية فكانت على النحو الآتي: كيف تجلت جماليات الوصف في رواية فتى الرصيف لبثينة مالكي؟

2. تعريف الوصف لغة واصطلاحاً:

2. 1 لغة:

جاء معنى كلمة وصف في معجم لسان العرب بأنه « وصف الشيء له وعليه وصفا وصفة: حاله والهاء عوض من الواو وقيل: الوصف المصدر والصفة الحلية. الليث: الوصف وصفك الشيء بحليته ونعته، وتواصفوا الشيء من الوصف. وقوله عز وجل ﴿وَرَبُّنَا الرَّحْمَانُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ أراد ما تصفون من الكذب. واستوصفه الشيء: سأله أن يصفه له. واتصف الشيء: أمكن وصفه، قال سحيم:

وما دمية من دمي ميسنا ن معجبة نظرا واتصافا

اتصف من الوصف، واتصف الشيء أي صار متواصفا. « (ابن منظور، 1981، مادة وصف) بمعنى أن كلمة وصف جاءت بعدة معاني حسب موقعها من الجملة.

2.2 اصطلاحاً:

أما اصطلاحاً فهو تقديم معلومات دقيقة عن الأشياء والكائنات والأماكن والأحداث باستخدام اللغة « فالوصف أسلوب إنشائي يتناول ذكر الأشياء في مظهرها الحسي ويقدمها للعين. فيمكن القول أنه لون من التصوير ولكن التصوير بمفهومه الضيق يخاطب العين أي النظر ويمثل الأشكال والألوان والظلال، ولكن ليست هذه العناصر هي العناصر الحسية الوحيدة المكونة للعالم الخارجي، فإذا تفرد الرسم بتقديم هذه الأبعاد بالإضافة إلى اللمس حيث أن الرسم يستطيع أن يوحي بالخشونة والنعومة فإن اللغة قادرة على استيحاء الأشياء المرئية وغير المرئية مثل الصوت والرائحة، ومن هنا نستطيع أن نفكر في التصوير اللغوي على أنه إحياء لا نهائي يتجاوز الصور المرئية ولذلك يجب أن ننظر إلى الصور المكانية في الرواية أي تجسيد المكان لا على أنها تشكيل للأشكال والألوان فحسب ولكن على أنها تشكيل يجمع مظاهر المحسوسات من أصوات وروائح وألوان وأشكال وظلال وملامسات إلخ ... » (سيزا، 2004م، ص111)

فالوصف هو إعطاء صورة ذهنية عن مشهد أو شخص أو إحساس وتقديمها للقارئ أو المستمع، فهو أسلوب لغوي يستخدم لتقديم تفاصيل دقيقة عن الموصوف بهدف مساعدة القارئ على اكتشافه وفهمه بعمق.

3. ملخص الرواية:

تحكي رواية فتى الرصيف للكاتبة الشابة بثينة مالكي أحوال اللاجئين السوريين ومعاناتهم في الدول التي اختاروها هرباً من القصف والقتل، فرواية فتى الرصيف تقدم قصة طفل صغير أجبر على الهرب من بلده مع والده إلى تركيا وسرعان ما توفي والده ليعيش حياته مشرداً في الشوارع، هذه الرواية ما هي إلا صرخة أدبية في مستقبل العمر نحو هذا المجتمع ونحو الإنسانية جمعاء للعناية والاهتمام بهذه الفئة التي لم تختر يوماً حياة الفقر والجوع والتشرد، بل أجبرت عليها بسبب حروب لم يتحمل نتائجها سوى أطفال وشيوخ ونساء وحتى رجال مسلمين.

4. دلالة العنوان:

اختارت الروائية بثينة مالكي عنوان فتى الرصيف لروايتها ليحيلنا مباشرة على معناه ودلالته التي تبدو واضحة، فهي تريد أن توجّه القارئ إلى طفل صغير يفتش الرصيف ويعتبره منزله الآمن بعد أن دمرت الحرب في سوريا منزله وتشردت عائلته. يقول سيزا القاسم: «العنوان سمة العمل الفني أو الأدبي الأول، من حيث هو يضمن النص الواسع في حالة اختزال وكمون كبيرين ويختزن فيه بنيته أو دلالته أو كليهما في آن. وقد يضمن العنوان الهدف من العمل ذاته، أو خاتمة القصة وحل العقدة فيها.» (قطوس، 2001م، ص 39)

وقد نسبت الكاتبة الفتى للرصيف وكأنه هو بيته وكل عائلته وهذا يشير إلى دلالات عديدة منها قسوة هذا المجتمع الذي رأى طفلاً يعيش في الشوارع دون أن يقدم له يد العون، حزن وألم الطفل ومستقبله الغامض حين يصبح الرصيف أحنّ وألطف على الفتى أكثر من قلوب البشر التي صارت من حجر «فالعنوان إذن ذو حمولات دلالية، وعلامات إيحائية شديدة التنوع والثراء، مثله مثل النص، بل هو نص مواز.» (قطوس، 2001م، ص 37) الكاتبة في هذه الرواية القصيرة تخبرنا عن الحرب القذرة التي يدفع ثمنها المسلمون عامة والأطفال خاصة فيتيتمون ويتشردون.

5. وصف المكان:

يعدّ المكان ذلك المسرح الذي تدور فيه أحداث الرواية، ويؤثر تأثيراً كبيراً سلباً وإيجاباً في شخصيات الرواية وفي تغير طباعهم» يعدّ الوصف أداة تقنية جمالية يقرب بها القاص المكان من المتلقي وتصويره وبيان جزئياته وأبعاده في رسم صورة بصرية تجعل إدراكه باللغة أمراً ممكناً، والوصف هو خطوة أولى لاختراق الشخصيات للمكان بما تحملها من مواقف ووجاهات نظر متباينة للأحداث المشكلة للعمل. (عبود، 2009م، ص 35) فالمكان يشكّل أحد العناصر المهمة التي يركز عليها العمل الروائي، فهو

الإطار الذي تدور فيه الأحداث وتسير وفقه الشخصيات، ومن خلاله يتمكن الكاتب من تقديم التجارب الإنسانية بشكل أعمق.

« والأماكن تختلف شكلا وحجما ومساحة، فيها الضيق المغلق، والمتسع المفتوح والمرتفع والمنخفض، المنقطع والمتصل. إنها أشكال من الواقع انتقلت إلى القصة وصارت عنصرا من عناصرها. » (عبود، 2009م، ص 29) واختلاف الأماكن يؤثر على الشخصيات وعلى أحداث الرواية وهذا ما سيكتشف بعد تحليل الرواية.

5. 1 البيت:

وهو مكان مغلق ومحدود، ويشغل حيزا مهما في حياة الشخصية الروائية، إذ أنه غالبا ما يكون مصدر راحة وأمن وطمأنينة، فهو يحميها من التشرذم والضياع، كما أنها تحقق ذاتها من خلاله، إذ يعتبر الحيز الوحيد الذي تتصرف فيه بحرية دون أن يكون هناك تدخل من الطرف الثاني، مما يسمح بخلوتها ويطلق العنان لمخيلتها لاسترجاع ذكريات وأحلام.

فالبيت كما يرى غاستون باشلار: « هو واحد من أهم العوامل التي تدمج أفكار وذكريات وأحلام الإنسانية (...) فبدون البيت يصبح الإنسان كئيبا مفتتا، إنه البيت يحفظه عبر عواصف السماء وأهوال الأرض. » (باشلار، 1987م، ص 38) فالبيت حسب غاستون باشلار مكان أليف، يعيش فيه الإنسان وهو ينعم بدفء الحياة فهو يجمع بين ذكريات الماضي وأحلام المستقبل، إذا فقد يتداخل فيه الماضي والحاضر والمستقبل.

ويقصد هنا بيته في سوريا فالبيت هنا هو مكان وملاد للأمان والراحة والبيت في الرواية هو حلم فارس أن يعود لحضن عائلته ويبقى بيته في سوريا هو حلمه الأول والأخير « أتذكر بيتنا الجميل ورائحة الياسمين المنبعثة من حديقته لا تكاد تغادر أنفي. » (مالكي، 2019م، ص 13) فالبيت في رواية فتى الرصيف يمثل الأمل والحلم في جمع شتات العائلة ويمثل أيضا الذكرى الجميلة التي يعود إليها فارس كلما قست عليه الحياة في تركيا.

5. 2 المستشفى:

ويرمز للفقد هذا المكان كان رمزا للوحدة فهو المكان الذي ارتبط بفقدانه لأمه وأخيه وبعده عن أبيه « أتذكر آخر مرة رأيت فيها أمي كانت في رواق المستشفى الذي كان يكتظ بالجرحى ويكاد ينعدم من الأطباء وحالات الفوضى والطوارئ التي كانت تعم المكان هذا جريح وآخر انتقل إلى رحمة الله كنت أقف وأحدق في المكان وكلي رعب وإذا بأبي يمسك بيدي لنغادر المستشفى بلا رجعة ومن ثمة اقتادونا خارج

المستشفى ووجهونا نحو حافلات كانت تكتظ بالمواطنين وكانت القوات المسلحة تجبرنا على مغادرة البلاد لوجهة أخرى. « (مالكي، 2019م، ص 15-16) المستشفى هو آخر مكان زاره الفتى قبل مغادرته سوريا، ولم يبق في داخله إلا انطباع الخوف والحزن وألم الفقد.

5.3 المخيم:

ثم آخر مكان تم ذكره والوقوف عليه في الرواية هو المخيم الذي كان مصدر أمل وسعادة للشخصية والحضن الدافئ كونه المكان الذي فيه أمه وأخته: « توقفت السيارة وأخذنا نترجل ونمر بين الخيم كلما شاهدت سيدة سألتها عن أمي لكن المخيم كان كبيرا ولم أبالي بالمسافة التي قطعتها مشيا في سبيل أن أجد أمي وفجأة وقفت وأخذت أتجه يمينا ويسارا حائرا وقد خانتني الحيلة وهديني الخوف وصرت أصرخ بأعلى صوت: (يا أم فارس يا أم فارس) مغمض العينين وإذ بيد ترتبت على كتفي فسكت وتجمدت في مكاني ودون أن ألتفت وضعت يدي على كتفي وتلمست تلك الأصابع إنها أصابع أمي يد أمي. « (مالكي، 2019م، ص 27-28) فالمخيم هنا كان مكانا يمثل الأمان للشخصية فهو الذي عثر فيه على أمه وشقيقته بعد سنوات من فقدان والوحدة والتشرد، ومن هذا المكان ابتدأت قصة جديدة وحياة أخرى لفارس.

كذلك الأماكن المفتوحة كانت لها علاقة كبيرة بالشخصية الرئيسية في الرواية وأيضا لتغير الأحداث وتطورها، فهي إما ساهمت في زيادة ألم ومأساة البطل وإما كانت مكانا للأمل والتفاؤل بغد أجمل ومن ذلك ومن بينها:

5.4 الرصيف:

وهو المكان الذي عنونت به الكاتبة روايتها والرصيف هو مكان مفتوح ويعدّ ممرا للراجلين ولكن بالنسبة للفتى فارس فإن الرصيف كان ملاذه الآمن « أنا فتى الرصيف أقف على رصيف المدينة أسمع أصواتا وأرى أناسا ألتفت يمينا وشمالا لعل أحد المارة يتفضل عليّ بالقليل من المال. « (مالكي، 2019م، ص 8) لقد كان الرصيف مكانا يعتمد عليه فارس لتحصيل قوت يومه عن طريق ممارسة مهنة التسول، أما ليلا فكان مكان يومه والفراش الذي يأوي إليه.

وقوله أيضا: « كان حالي يصرخ هل من أحد المارة يحضر لي كعكة أو لعبة إنني أشتي أحدهما. لا لم تعد الكعكة تعينني ولا الألعاب تستهويني فأنا أحتاج إلى ركن يؤويني فمثلي يأويه الشارع فعندما يحين الليل أفترش أكياس الدقيق الفارغة تشاركني فيه ققط الشوارع وتجاوزني أكوام القمامة. أسمع أصوات الكلاب ولا أبالي تعودت على نباحها، أستسلم لنوم عميق ملتفا بمعطفي من يراني يحسبني كومة من

القش. « (مالكي، 2019م، ص 11) لقد كان الرصيف والشارع مكانا مفتوحا يمثل الألم والجوع والوحدة والاحتياج فالشارع برصيفه وأزقته هو مكان يزيد في حزن وتعاسة البطل .

5.5 الشارع:

وتعتبر شوارع اسطنبول مكانا شاهدا على كل مآسيه : «لم يبق لي حل سوى التسول في شوارع (اسطنبول) أصبحت فتى متشرد يتجول في شوارع المدينة باحثا عن بعض النقود أو أكلا يسكت جوعي. « (مالكي، 2019م، ص 19) وتبقى هذه الشوارع رغم انفتاحها واتساعها تضيق على الشخصية. « وتمضي الأيام والشهور ويحلّ الشتاء ببرده القارص ولياليه الطويلة التي أقضيها في شوارع اسطنبول الباردة دون مأوى وعندما ينهكني السير ويستنزف قواي ألجأ إلى ركن في الحديقة العامة للمدينة وأفترش أحد المقاعد وألتف بمعطف أبي القديم لأشم فيه رائحته وأتفقد قصاصة كتبها لي بيده يقول فيها: فارس بطلي الصغير اعتني بنفسك. « (مالكي، 2019م، ص 23) فارس هنا يعيش غربة في هذا البلد وغربة نفسية كونه بعيدا عن أمه وأخيه الصغير، فالشارع بكل ما فيه من أحياء وأزقة وأرصعة وحدائق لا يمثل سوى الوحدة والخوف والألم لهذا الطفل.

6. وصف الزمان:

إن الزمن يخدم الوصف داخل النص، فهو يوقف حركة الزمن أي أنه يشكل توقف لمسيرة تنامي وتدفع الأحداث، وهذا لا يكون إلا بالمفارقة الزمنية وهي الخروج عن الترتيب الطبيعي للزمن والتسلسل المنطقي للأحداث، سواء بالعودة إلى الوراء عن طريق استرجاع الماضي أو استشراف المستقبل. وهو نوعان: الاسترجاع حيث يتمثل في إيقاف السارد لمجرى تطور الأحداث، ليعود لاستحضار وقائع حدثت في الماضي، يقول حسن بحراوي: "إن كل عودة للماضي تشكّل، بالنسبة للسرد، استذكارا يقوم به لماضيّه الخاص، ويحيلنا من خلاله على أحداث سابقة عن النقطة التي وصلتها القصة". (بحراوي، 1990م، ص121) وينقسم الاسترجاع إلى ثلاثة أقسام وهي: استرجاع خارجي ويعود إلى ما قبل بداية القصة، استرجاع داخلي يعود إلى ماضٍ لاحق لبداية القصة، واسترجاع مزجي وهو ما يجمع بين النوعين و الاستشراف (الاستباق) وهو تقنية من تقنيات المفارقة الزمنية وفيها يقوم الكاتب بالتطلع إلى المستقبل وما هو متوقع أو محتمل الحدوث في القصة؛ وهو نوعان استباق داخلي يحدث داخل القصة، واستباق خارجي يخرج عن أحداث القصة ويتجاوزها. " وعلى المستوى الوظيفي تعمل هذه الاستشرافات بمثابة تمهيد أو توطئة لأحداث لاحقة يجري الإعداد لسردها من طرف الراوي فتكون غايتها في هذه الحالة هي حمل القارئ على توقع حادث ما أو التكهن بمستقبل إحدى الشخصيات....، كما أنّها قد تأتي على شكل

إعلان (Annonce) عمّا ستؤول إليه مصائر الشخصيات مثل الإشارة إلى احتمال موت أو مرض أو زواج بعض الشخصيات. (بحراوي، 1990م، ص 132)

وللاستشراف وظيفتين الأولى تتعلّق بما هو تمهيدي الهدف منها التطلع إلى ما هو محتمل الحدوث في أحداث القصّة، في حين يؤدّي النوع الثاني وظيفة الإعلان عندما يصحّح عن سلسلة أحداث سيشهدّها السرد في وقت لاحق.

وينقسم الزمن في رواية فتى الرصيف إلى ثلاثة أنواع استرجاع ووصف لماض جميل، حاضر سيء، ومستقبل غامض ولكن فيه بعض التفاؤل والأمل: « وتمر الساعات وأنا على هذا الحال واقفا واضعا يدي على خدي أرى أطفالا من عمري يرتدون ثيابا جديدة وأنا أبدولهم كوحش صغير بثيابي الممزقة. » (مالكي، 2019م، ص 10) الحاضر بالنسبة للبطل مؤلم جدا وخاصة حين يجول ببصره يمينا وشمالا ليرى من هم في مثل سنه يعيشون مع عائلاتهم بأمان وسعادة ويمارسون حياتهم بشكل عادي يأكلون ويلعبون ويدرسون أما هو فحزين ممزق الثياب محروم من أقل حقوقه وهي منزل دافئ وأكل يسدّ رمقه. « وفجأة توقظني العواصف والرعود فتهمزني الأصوات وأستيقظ وكلي خوف وفزع يهجر النوم عينا فيمر شريط حياتي أمامي أنا الهارب من رائحة الموت وأصوات القصص، أنا مجرد جثة متحركة تفوح منها رائحة الدماء والبارود. » (مالكي، 2019م، ص 11-12)

هكذا يقضي الطفل نهاره وليله خائفا من العواصف والرعود لقد مات في فارس كل ما يجعله يرغب في العيش حاضره لا يمثل سوى التعاسة والألم «أيامي تمر متشابهة يوم مضى ويوم آت ولا يتغير شيء إلا حالتي فهي تزداد سوءا يوما بعد يوم. » (مالكي، 2019م، ص 12) وهكذا يصف فارس حاضره أن كل يوم يأتي هو أسوء من الأمس لاشيء سوى الألم والجوع والوحدة.

وفجأة يعود الطفل لاسترجاع الماضي الجميل وهو في حضن عائلته: « أشتاق إلى طبخ أمي وكعكة العيد كم كنا مسرورين عندما تجتمع العائلة وجيران الحارة على الحلوة الشامية. أتذكر عندما كنا نذهب إلى المسجد لنكبر ونهلل للعيد، لم يتبقى شيئا تفرقنا، أتذكر جيدا كانت أمي تمشط لي شعري وتلبسني ثيابا جديدة بعد الاستحمام، وأخرج لأهني أقاربي بالعيد ثم أمضي اليوم كله برفقة أصدقائي. » (مالكي، 2019م، ص 13) وهو استرجاع خارجي عادت فيه الشخصية إلى أحداث جرت قبل الرواية.

ثم يتجه بتأمل المستقبل الذي يبدو غامضا مخيفا يتخلله بعض من التفاؤل والأمل بغد أفضل « تحاورني أسئلة كثيرة. عن مصير اليتيم المتشرد بلا مأوى ولا معيل، تراني أمضي إلى بلدي أم أبقى فتى مشرد لأصبح عجوز الشوارع؟ هل من يد رحمة تنتشلني من الفقر والعوز والضياع؟ هل سأستسلم للمصير المحتوم أم أألف. » (مالكي، 2019م، ص 19) وهو استشراف خارجي يعدّ تمهيدا لما سيحصل له مستقبلا.

وتمضي الأيام وأحواله بأئسة تزداد سوءا يوما بعد يوم، ثم يأتي اليوم الموعد الذي يقابل فيه أمه وكان كل خوفه ألا يجدها: « ويتملكني الخوف أن أقطع تلك المسافة دون أن أجدها، التزمت الصمت وأخذت أهدق في زجاج السيارة كأن قدراتي العقلية كلها تجمدت وبدأت المسافات تطوى وأخيرا جاءت اللحظة التي كنت أنتظرها وقد مرت ثلاث سنوات على مجيئي إلى تركيا. » (مالكي، 2019م، ص 27) وهو استشراف داخلي ويعد بمثابة إعلان على الأحداث المقبلة والتقاءه بوالدته بعد فراق دام ثلاث سنوات. وهكذا تغير الحاضر والمستقبل في نظر الطفل الذي صار لا يرى إلا كل شيء جميل في حاضره ومستقبله وخاصة أنه عثر أخيرا على أمه وأخيه. « فأخذتني مع أخي في حضن واحد وببتلك الأحضان الدافئة انمحت كل تلك المآسي والمصاعب التي مررت بها وانتهت مخاوف الأمس وبدأ أمل الغد يلوح في الأفق بأن نعود إلى سوريا الوطن. » (مالكي، 2019م، ص 28) وهنا أيضا استباق خارجي لما سيحصل له مستقبلا وهو بمثابة إعلان عن عودته إلى وطنه الأم.

وهكذا جاء وصف الزمان في رواية فتى الرصيف بين حاضريسيء عانت فيه الشخصية من الضياع والوحدة والحزن والفقر والجوع والتشرد، وبين استرجاع للماضي الجميل حين كان فارس ينعم بالدفء والسعادة مع عائلته تحت سقف واحد في وطنه سوريا ويعيش طفولته كباقي أقرانه، وبين مستقبل غير واضح المعالم ولكن يبقى الأمل بالعودة إلى الوطن وخاصة أنه عثر أخيرا على أمه وأخيه.

7. وصف الشخصية:

ليس بالضرورة أن تكون الشخصية التي يرسمها الكاتب واقعية، بل هي نتاج خيال كاتب مبدع يضيف عليها لمسته الخاصة مركّزا على إبراز النواحي الجسمية والنفسية والذهنية لتخدم أحداث الرواية وتساعد القارئ على فهمها، لقد وظف القاص الوصف هنا كأداة للتعبير عن باطن الشخصية التي تتسم بالضعف جسديا وللدلالة على الشعور الذي يعتريها إزاء ما تعانيه.

«يمكن أن توصف الشخصية وهي تعمل وأن يوصف الجماد باستخدام مسانيد فعلية ويمكن أن يفسح المجال للشخصية لتصف وهي تقول ويمكن أخيرا أن تنتهي إلينا الأوصاف من منظور إحدى الشخصيات المشاركة في الحكاية.» (العمامي، 2010، ص 87).

ولقد اعتمدت الكاتبة في هذه الرواية على تقنية وصف الذات وهو ما تقدمه الشخصية عن نفسها، ببث معلومات ضمنية عن مظهرها ومزاجها وطبائعها التي تتميز بها، وبهذا يكون أسلوب وصف الذات من الأساليب التي تساعد القارئ على كشف مكنونات الشخصية وفهم أحداث الرواية، ويكون ذلك عن طريق الحوار الداخلي المونولوج.

تبدأ الرواية بوصف فارس لنفسه قائلا: «أنا فتى نحيف الجسم خدي يكسوهما كثير من السواد كأنهما فحم وجبيني يتصبب عرقا من جهد الوقوف، لي قبعة تلازمي لتحميني من برد الشتاء وحر الصيف وتخفي كثيرا من الغبار الذي غزا شعري كأنه شيب يغزو شيخا كبير السن، جسدي الهزيل لا يكاد يقوى على السير حتى حدائي لم يصمد فقد استسلم وتمزق من المسافات التي يقطعها هل عرفتُموني؟» (مالكي، 2019م، ص 8) يصف فتى الرصيف نفسه قائلا أنا فتى نحيف الجسم ونحافته نتيجة فقره وجوعه وتشرده خداه يكسوهما السواد بسبب أشعة الشمس وتقلبات الجو التي غيّرت لونه، جبينه يقطر عرقا من كثرة وقوفه، شعره مليء بالغبار كونه قليل الاستحمام، حتى ملابسه رثة وحدائه ممزق. ولكن رغم كل ما يعانيه هذا الفتى فهو يظل صابرا قويا آملا في غد أجمل وأن تعود سوريا أجمل وأفضل ممّا كانت عليه.

ثم يواصل الفتى وصف نفسه قائلا: «لم أعد ألتقيه منذ زمن، فلا أحد يعرف اسمي هنا غيره. أحيانا ينتابني الشعور بأنني عديم اللقب فمنذ مدة طويلة لم يذكرني أحد باسمي: فارس فأبقى أكرر وأدور حول نفسي بصوت عال أكررها فارس، فارس من يراني يظن أنني جننت. لقد غاب الأمل وحلّ الألم.» (مالكي، 2019م، ص 22) فما يعانيه لوحده في بلد غير بلده من شدة همه ومحاولته بدل ما بوسعه ليبقى حيا هذا جعله ينسى نفسه وكيانه كإنسان وطفل لديه حقوق بل نسي اسمه أيضا. فبعد أن كان يعيش عزيزا مكرما في وطنه أصبح الآن مشردا تعيشه جائعا مشتاقا لبلده وبيته وعائلته ولعيشه الكريم وهو آمن، وهكذا جاء وصف الشخصية في الرواية ليبرز معاناة فارس ويسبر أغوارها، ويصف حالها وجسدها وقسوة الحياة عليها في بلد اللجوء.

8. وظائف الوصف:

هناك عدّة وظائف للوصف من بينها الوظيفة السردية والوظيفة الإيهام بالواقع والوظيفة الرمزية، والوظيفة الإيديولوجية والوظيفة الإبداعية:

8.1 الوظيفة السردية:

من الصعوبة فصل المقاطع الوصفية في الخطاب الروائي عن المقاطع السردية، فإذا كان السرد يتعلق بالزمن فإن الوصف يتعلق بالأشياء «إن النص الروائي في جملته ينقسم إلى مقاطع وصفية ومقاطع سردية (وأیضا إلى حوار إنما الثنائية الأساسية هي بين السرد والوصف) وتتناول المقاطع السردية الأحداث وسريان الزمن أما المقاطع الوصفية فتتناول تمثيل الأشياء الساكنة. ونستطيع أن نتصور مقاطع وصفية خالية تماما من عنصر الزمان.» (سيزا، 2004م، ص 116)

فالسارد يلجأ إلى توقيف مسار السرد وتعطيل حركته ليصف شخصا أو مكانا أو شيئا ومن أمثلة ذلك في الرواية ومن ذلك هذه المقاطع: « لكن الأمر لا يدوم طويلا فعندما تمر إحدى سيارات الشرطة يفر عيسى مسرعا تسابق ساقيه النحيلتين الرياح لأن التسول غير قانوني، وما إن تغادر الشرطة حتى يعود إلى مكانه يعزف على آلتة وآخر النهار تجده متألما يشكو من الصداع ومن النفخ وقد تمكن منه التعب. » (مالكي، 2019م، ص 22) وهنا يتوقف السارد ليروي للقارئ قصة عيسى صديق فارس ويصفه وأيضا يصف منزله القديم وحياته في سوريا.

8. 2 وظيفة الإيهام بالواقع:

وقد عمد القاص إلى إيهام القارئ بواقعية الأحداث « لهذا الوصف القائم على المحاكاة وظيفتان كبيران في السرد الواقعي هما بناء مكان القصة وزمانها وتقديم الشخصيات وترتبط به وظيفة أخرى هي وظيفة الإيهام بالواقع فالشخصيات في مقاطع الوصف ذي الوظيفة التمثيلية، شبيهة بالبشر أسماء وكنى ومنزلة اجتماعية. » (العمامي، 2010، ص 189)

إيهام القارئ بواقعية القصة وجذبه إليها من خلال أسماء الشخصيات أو الأماكن، فارس ما هو إلا صورة مصغرة عن عدد غير محدود من الأطفال اللاجئين في سوريا وما يعانونه في حياتهم اليومية فذكرت الكاتبة سوريا واسطنبول وشوارعها وفارس هو صورة مصغرة عن مئات مثل فارس مشردون في بلدان مختلفة وقد فرقت الحروب بينهم وبين أهاليهم

« ووجدنا أنفسنا في بلد مجاور لسوريا وإذ بنا نصطدم بواقع غير بعيد عن ظروف الحرب. فأنا الآن أحد اللاجئين الفارين من الحرب المصدومين بواقع مرير: إنها الغربة. » (مالكي، 2019م، ص 15) فالقارئ يعيش قصة فارس ويتأثر بها كما لو أنه إنسان حقيقي يروي لنا قصته.

8. 3 الوظيفة الرمزية:

إذ أنّ الروايات غالبا تكون محملة بإشارات ودلالات ورموز رؤية الكاتب وموقفه من الوضع السياسي والاجتماعي السائد « أي أن تكون للوصف وظيفة رمزية دالة على معنى معين في إطار سياق الحكى. » (لحمداني، 1991م، ص 79) ويقصد بها البنية الرمزية للشخصيات على قابليتها للتأويل.

ومن أمثلة ذلك فارس وصديقه وهم يمثلون ويرمزون للأطفال اللاجئين يقول بطل الرواية « أنا فارس أبكي بصمت وأتألم بسبب البرد والجوع، يكاد قلبي يتفطر من الشوق إلى وطني وأهلي وأمي وأخي وكلي الصغير تيدي. يمضي يومي وأنا صفر اليدين لا أملك سوى بعض القروش تبقى أحيانا وكثيرا من الأحيان تسقط مني بسبب جيبي الممزق. » (مالكي، 2019م، ص 22) وقوله أيضا: « عزائي في ذلك أنني لست

الوحيد هناك الكثير من أمثالي، آه تذكرت صديقي عيسى وأخاه الأكبر أدهم إنهما مثلي يتجولان في شوارع إسطنبول يعزفان على آلة الناي لعلّ أحد المارة ينتبه فيجود عليهما بقليل من المال .». (مالكي، 2019م، ص 20)

كما رمز الأب في القصة إلى الأمان: «كان وجود أبي يمدني بالقوة فأرى فيه الأب والوطن والسند، اشتغل في أحد المقاهي ليكسب قوت يومنا وكان ذلك المقهى بمثابة مخرج لنا من أزمنا لأنه كان يؤوينا ليلا وفي النهار كان مقر عمل أبي، صاحب المقهى كان فاضلا وجد كريم معنا إنه: العم (فكرت) لم يكن يدخر جهدا لمساعدتنا. » (مالكي، 2019م، ص 15- 16) تكمن الوظيفة الرمزية للوصف هنا في تقريبنا من الواقع لنكتشف شخصيات ترمز لأناس حقيقيين وهم أولئك اللاجئين المبعدون عن أوطانهم إكراها وجورا وظلما، كما جاء دور الأب هنا ليمثل الأمن والاطمئنان بل وذهب الفارس بعيدا في وصفه حين قال أنّه وطن.

8. 4 الوظيفة الإيديولوجية:

قد يعطي القاص الشخصية دورا يبرز من خلاله مجموعة أهداف أراد توصيلها إلى القارئ بطريقة غير مباشرة، فنجدته يختار الشخصيات حتى تعبر عن صوته وأفكاره وانشغاله. وهنا كان هدف الكاتبة إبراز ما يعانيه أطفال سوريا في البلدان الأخرى التي يلجؤون إليها: «ولسان حالي يقول: أيها المار أنا لاجئ شجاع سوري الأصل أصارع من أجل لقمة العيش لا أخجل ولا أطأطأ رأسي وكلي إيمان بأن سوريا ستعود وأبنائها سيعودون ويوما ما سيزهر ياسمين الشام وتعود رائحته الزكية بدلا من رائحة الدمار والموت أنا بطل لكن لا يرتدي زيا خاص كما في أفلام الكارتون، فأنا بطل الشوارع بزي رث وقلب صبور. » (مالكي، 2019م، ص 20) هنا تقدم لنا الأدبية على لسان بطل روايتها نظرتها السياسية للمستقبل في سوريا فهي ترى أنه لابد أن يأتي يوم ينتصر فيه السوريون ويعودون إلى وطنهم ويعيدون بناءه من جديد.

8. 5 الوظيفة الإبداعية:

تعدّ اللغة وصفا تزيينيا، حيث يعتمد الروائي إلى استخدام المحسنات اللفظية ليضفي جمالية على النص مثل الطباق الجناس والمقابلة، التورية والسجع وغيرها كثير، ومن المعروف أن شعرية الرواية هي ما يجذب المتعة للقارئ ويرفع من مكانة الرواية. يقول حميد لحداني: «والوصف يقوم في هذه الحالة بعمل تزييني وهو يشكل استراحة في وسط الأحداث السردية، ويكون وصفا خالصا لا ضرورة له

بالنسبة لدلالة الحكي. » (لحمداني، 1991م، ص 79) فالوصف يسعى إلى تشخيص الأشياء، وتعيين خصائص الموصوف من الشكل والحجم واللون بالاعتماد على الصور البيانية كالاستعارة والتشبيه. ومن أمثلة ذلك في الرواية استخدام الكاتبة للتشبيه لتبرز مدى معاناة الطفل فارس: « أرى أطفالاً من عمري يرتدون ثياباً جديدة وأنا أبدولهم كوحش صغير بثيابي الممزقة. » (مالكي، 2019م، ص 10) فهو هنا يصور نفسه كوحش مخيف يختلف كثيراً عن أطفال تركيا في النظافة والثياب اللائقة. وقوله أيضاً: « أنا مجرد جثة متحركة تفوح منها رائحة الدماء والبارود. » (مالكي، 2019م، ص 12) هنا تشبيهه بليغ حيث جعل من نفسه مجرد جثة وكان الغرض من هذا التشبيه إبراز موت الشخصية نفسها بابتعاده عن وطنه وأهله فهو يعيش دون حلم وطموح هدفه الوحيد من يومه هو تسول النقود أو الطعام والشراب. وقوله أيضاً: « فالحجارة والزجاج الملقى على الأرض كأنها عقارب تلسع رجلها الصغيرتين. وكل خطوة أخطوها بصمت وكلي حسرة وحيرة. » (مالكي، 2019م، ص 12) جاء وصف الكاتبة لرجلي فارس الحافيتين وهما يدوسان قطع الزجاج كلسعة العقرب المميتة من شدة الألم «وكان وقع الخبر على مسامعي كوقع القصف على بيتنا كأنّ الأرض تهتز تحت قدمي، إنه السند والرفيق والمعيل. » (مالكي، 2019م، ص 18-19) وهنا تشبيهه تمثيلي حيث شبه صورة وقع خبر موت والده عليه كمثّل وقع انهيار منزلها بسوريا تحت القصف، «أنا الآن في بلد لا أعرف لغته ولا عملته. ألجأ إلى الإشارة كأني أبكم لعل المارة يفقهون ما أطلب. » (مالكي، 2019م، ص 20) وفي هذه الجملة أيضاً يصف فارس معاناته في وطن غريب عنه لا يعرف لغته، فيضطره للحديث معهم بالإشارة وكأنه فاقد لحاسة النطق. وهكذا كانت الرواية جامعة لكل وظائف السرد «والواقع أن جميع الوظائف التي أوردتها للوصف تجعله تابعاً للسرد، فإما أن يقوم بعمل تزييني يشدّ القارئ إلى الأحداث، وإما أن يفسر الأحداث، وإما أن يوهم بها. » (لحمداني، 1991م، ص 134) فكانت مثلاً لتوظيف الوصف بمختلف تقنياته وجمالياته.

9. خاتمة:

ومن خلال هذه الدراسة توصلنا إلى عدّة نتائج أهمها:

-فتى الرصيف هي رواية واقعية تحكي أحداثا قد تكون واقعية لكثير من اللاجئين والأطفال الذين يعانون كثيرا من الفقر والتشرد والذين فقدوا عائلاتهم وضاعوا في بلدان اللجوء، وقد اختارت الكاتبة عنوانا يحيل مباشرة على المعنى الحقيقي للرواية فلا يسكن الرصيف ويفترشه إلا من فقد المأوى والأمان في حياته.

-لقد عدّ المكان في الرواية من العناصر المهمة والتي لعبت دورا كبيرا في أحداث الرواية من شوارع اسطنبول وأحيائها إلى المستشفى والمخيم كل هذا أثّر تأثيرا كبيرا في شخصية البطل وجاء وصفه للتعبير عن آلام الطفل فارس ومعاناته في بلاد الغربة.

-انقسم الزمن إلى ثلاث أقسام، وصف الزمن الماضي عن طريق استرجاع ذكرياته في وطنه سوريا حيث تجتمع العائلة والأحباب، والمستقبل المجهول الذي يضل غامضا بالنسبة للشخصية ولكنه يأمل خيرا ويتفاءل بعودة سوريا واجتماعه بأمه وأخيه من جديد عن طريق الاستشراق، والحاضر الذي يمثل الألم والمرض والعذاب والجوع والإهانة.

-قد أحسنت الكاتبة أيضا وصف الشخصية وخاصة بطل الرواية من شكله وملابسه إلى وصف أخلاقه وصفاته النفسية وحتى الإيديولوجية.

-أما عن وظائف السرد فهي خمسة وظيفة سردية تتجسد في وصف المكان والزمن ورسم الشخصية واستبطان دواخلها، وظيفة الإيهام بالواقع حيث استطاعت الكاتبة بإيهام القارئ بواقعية رواية فتى الرصيف وجذبه إليها من خلال أسماء الشخصيات والأماكن وكذلك تشابه الأحداث مع الواقع، ووظيفة رمزية تتمثل في رمزية الشخصيات التي تمثل أطفال اللجوء السياسي ومعاناتهم اليومية، ثم الوظيفة الإيديولوجية ويقصد بها أهداف الكاتب من الرواية وهي تسليط الضوء على ما ينتج عن الحروب في العالم حيث لا يدفع الثمن سوى الأطفال والأبرياء. أما الوظيفة الأخيرة وهي الإبداعية حيث لجأت الكاتبة إلى استخدام المحسنات البديعية والصور البيانية خاصة التشبيه ما زاد اللغة جمالية ورونقا.

10. قائمة المراجع:

- ابن منظور، (1981م) *لسان العرب*، مصر، دار المعارف.
- أوريدة، عبود، (2009م). *المكان في القصة القصيرة الجزائرية الثورية (دراسة بنيوية لنفوس ثائرة)*، الجزائر، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع.
- بثينة، مالكي، (2019م) *فتى الرصيف*، (ط1) الجزائر، دار المثقف للنشر والتوزيع.
- بسام موسى، قطوس، (2001م)، *سيمياء العنوان*، (ط1) الأردن، طبع وزارة الثقافة.
- حسن، بحراوي، (1990م)، *بنية الشكل الروائي (الفضاء- الزمن- الشخصية)*، (ط1)، لبنان، المركز الثقافي العربي.
- حميد، لحمداني، (1991م)، *بنية النص السردى من منظور النقد الأدبي*، (ط1) المغرب، المركز الثقافي العربي للطباعة والنشر والتوزيع.
- سيزا، قاسم، (2004م)، *بناء الرواية (دراسة مقارنة في ثلاثية نجيب محفوظ)*، مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- غاستون، باشلار، (1987م)، *جماليات المكان*، (ط3)، لبنان، المؤسسة الجامعية لدار النشر والتوزيع.
- محمد نجيب، العمامي، (2010م)، *الوصف في النص السردى بين النظرية والأجواء*، تونس، دار محمد علي للنشر.